التي ستتحول الى « مثل أعلى » يمكننا أن نرى ملامحه بوضوح في عنوان الدراسة : « النقيض الذي لم يصر تركيباً » وقد انعكست الآية ـ بقدرة قادر ـ حيث التركيب صار جدلاً والجدل صار تركيباً !

الناحية الشكلية

ألفت الانتباه الى أنني سأتعرض هنا لشكل نقد الدكتور حسام للنقيض ، وليس لملاحظاته عن شكل الرواية ، لأن هذه الملاحظات التي تدعي بإطلاقيتها هي ، موضوعياً ، غريبة عن النص .

بعد مقدمة الناقد ، « الشخصية » مباشرة لدينا فصل تحت عنوان : « ماذا تقول الرواية ؟ » ، وبعد سلسلة من الاحكام ، والتكهنات والاستنتاجات التبريرية للتجربة الروائية تارة وللكاتب تارة أخرى ، يصل الدكتور حسام الى أن الرواية عبارة عن « محاولة جريئة » وأن ما هو أشد جرأة منها اقدام قارىء « فدائي » على تلخيصها » .

اذن ، يسبغ الدكتور حسام طابع التعقيد على الرواية الذي لا أنفيه بدوري ، ولكنه يسبغه **لتبرير** عملية التلخيص المعقدة ، التي لا يمكن أن يقوم بها إلا قارىء « فدائي » : أي ، قارىء « مغامر » ، وفي الوقت نفسه ، أقوى من النص . وفي هذا يكمن الموقف « التسلطي » الذي يقود العملية النقدية ليس فقط في تلخيص الرواية حيث لا تلبث الملاحظات الموضوعة بين الاقواس* المرافقة للتلخيص أن تنقض « الحيادية » المتمثلة في العنوان : « ماذا تقول الرواية ؟ » ، ولكن أيضاً عندما يبدأ التحليل بالفصل « معنى النقيض » ، حيث نقرأ : « ولعل الخطوط العريضة التالية تشكل عناصر فهم النقيض لدى أفنان القاسم » ، والمفروض أن يقول الدكتور الخطيب : عناصر « فهمي » أنا لنقيض أفنان القاسم ، وهو بذلك يرد للكاتب ، صاحب النص ، أشياء رآها هو ، والتي ليست بالضرورة ما رآها الكاتب . انه يتسلط على النص من الخارج عند تلخيصه ومن الداخل عند تحليله ، ويحاول أن يبقى في كلتا الحالتين طرفاً محايداً ، ليوهم القارىء بأحكامه المطلقة ـ قدحاً ومدحاً ـ كأحكام نهائية ، وليوقع النص والقارىء معاً في مأزق العجز الذاتي :

« ان القارىء **لا يستطيع أن** يجزم تماماً بما يقصده [البطل] علي من فكرة ، الخ .. » . وفي مكان آخر نقرأ : « ان رواية النقيض الداخلية ـ شأنها شأن رواية النقيض الخارجية ـ تعاني من عدم الاستواء في الاجادة ، وما أكثر ما فيها من ارتفاعات وانخفاضات ، وما أكثر ما تفاجىء القارىء بما **لا يسمح له** بالاستمرار في التأثر ، وبالتالي التعلق بما يجري ، الخ .. » .

حقاً إن النقد العلمي الحديث لا يمنع القيام بعملية تلخيص للنص المنقود ، ولكن بناء على محاور يعمل الناقد على توسيعها نقداً لاثبات الموضوعة الاساسية . وعلى العكس اذا ما تعلق الأمر هنا بالتلخيص ، فهو تلخيص كلاسيكي ، وفي الوقت نفسه ، تفسيري . واذا ما تعلق الامر بالموضوعة الأساسية : « معنى النقيض » مثلما يحاول الدكتور حسام التوصل اليه ، فهو كلاسيكي ، ايضاً ، وفي الوقت نفسه تفسيري ، في محاولة دائمة لتحميل النص أو صاحبه أو القارىء عناء استنتاجات الناقد الذاتانية عن طريق تسلطه النقدوي ، وليس عن طريق بحثه النقدي ونبشه واستقصائه وجدلية نظرته للنص شكلاً ومضموناً ، ولجدل العلاقة القائمة بين النص كفن ورؤية والواقع كأساس مادي واجتماعي . وأحسن مثال نعطيه على الطريقة التسلطية النقدوية لدى الدكتور حسام الخطيب ، عندما يستعرض « بسرعة » ـ حسبما يقول ـ « طبيعة كل من الطرفين (المتصارعين) كما يبدو من الرواية » ـ لنلاحظ مرة أخرى أنه لا يقول كما يبدو لي أنا من الرواية ـ فهو يحدد هذه « الطبيعة » بالنسبة للطرف الفلسطيني ، وكذلك بالنسبة للطرف الصهيوني ، تحت تفرعات عديدة لمفهوم « الضحية » . ولكن كيف ظهر البطل الفلسطيني أو البطل الصهيوني كضحية ؟ أي كيف جرى تقديمهما فنياً ؟ فنحن لا نقف على شيء .

---

* يقول الدكتور حسام الخطيب في لحظة من لحظات تلخيصه : « وتعترضه عجوز معروقة ، ويتطور بينهما صراع مرير (ربما رمز الماضي التعيس جداً) » ، ويقول ايضاً : « لولا أن أخاه (وجهه الآخر) يأتي فجأة (من اللامكان) لينقذه ، ولكن العجوز تصر على قتل علي ، وتظفر بذلك (لينتهي بمقتله مسلسل فوج معين من فلسطينيي التجربة الأولى) » ، وهناك أمثلة أخرى عديدة مشابهة .